7- خولة طالبي الإبراهيمي: مبادئ اللسانيات العامة، ص 96.
8-المرجع نفسه ص96.
9-مصطفى حركات اللسانيات العامة وقضايا اللغة العربية المكتبة العصرية بيروت ص.72
10-االمرجع نفسه ص.73
11-تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص.161
12-المرجع نفسه ص 325-328
13-أحمد محمد قدور مبادىء اللسانيات ص .139
14- تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص.151
15- أحمد محمد قدور مبادىء اللسانيات ص .151
16- نفسه.151
17-نفسه ص.151
18-اللغة العربية معناها ومبناها ص.329
19-مصطفى حركات اللسانيات العامة وقضايا اللغة العربية ص73-.75
20-اللغة العربية معناها ومبناها ص.169
21-مصطفى حركات اللسانيات العامة وقضايا اللغة العربية ص66،65.

المواءمة الصوتية والانتقاء القياسي للغة
قراءة في الأنموذج الخليلي من خلال"العين"

الأستاذ: الجمعي بو لعراس
المركز الجامعي الشيخ العربي التبسي – تبسة.

تمهيد:

إن أهم ما يميز معجم "العين" للخليل أن مؤلفه لم يجمع مفرداته من طريق استقراء ألفاظ اللغة، وتتبعها في مؤلفات السابقين، وجمعها من شفاه الرواة ، وإنما جمعها بطريقة منطقية رياضية، حيث لاحظ أن الكلمة لا تخرج عن كونها ثلاثية أو رباعية أو خماسية. وفي كل حالة إذا أمكن تبديل حروف الكلمة إلى جميع احتمالاتها (بالانتقال من حرف هجائي إلى الذي يليه)، وأمكن تقليب أماكن هذه الحروف إلى جميع أوجهها الممكنة يكون الحاصل معجما يضم جميع كلمات اللغة من الناحية النظرية. ولكن لا توجد لغة تستخدم جميع إمكاناتها النظرية، ولهذا كان لابد للخليل بعد الإحصاء النظري أن يميز بين المستعمل من هذه الصور والمهمل[1] وقد فعل ذلك، واستفاد في تمييز المستعمل من المهمل بثقافته اللغوية الخصبة، وبخبرته الصوتية

[1] يكاد يتطابق مفهوم "المستعمل" عند الخليل مع مفهوم "المورفيم" عند المحدثين ، أما مفهوم المهمل فيشمل ما يسمى بمصطلح الحديث "مورف" ويشمل غيره.

الباهرة ومعرفته بالتجمعات الصوتية المسموح بها وغير المسموح بها في اللغة العربية كطريقة للانتقاء بين أشكال المنطوق اللساني العربي، وبذا حكّم القوانين الصوتية إلى جانب تحكيمه للمادة اللغوية المسجلة .

ولا غرو أن نقول إن كثيرا من اللغات الطبيعية تتمايز في مستوياتها الفصاحية ، ولهذا هناك من يرى أن لا فرق بين الماضي اللغوي والحديث المعاصر إذ " إن العربية في مستوياتها، الفصيح المكتوب والعامي المنطوق قد عرفت في مختلف مراحل استعمالها وفي الأمصار المعرّبة التي استعملت فيها لغة طبيعية، مظاهر من التطور عديدة في أصواتها وصرفها ودلالتها وتراكيبها، لكن ذلك التطور كان يحدث فيها من الداخل حدوثا طبيعيا غير خارج في جوهره عن النماذج الفصاحية (الأصلية) التي وصفها علماء اللغة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ... والعربية الحديثة إذا بمستوييها العامي المنطوق والفصيح المكتوب ليست بخارجة عن النموذج اللغوي العربي القديم " [2]

لقد راعى الخليل في معجمه " العين" كل الكلام العربي قديمه وحديثه ، دخيله ومعربه، مستعمله ومهجوره، ذلك لأنه بصدد جمع المادة اللغوية بطريقة رياضية ولكنه أشار إلى هذه الأصناف وميّز بينها بطريقة صوتية، أي بطريقة تجمع فونيماتها وطريقة ترتيبها في الكلمة، وببراعته وفطنته الصوتية استطاع أن يميز بطريقة فونولوجية بعض الأنماط التي تستكرهها العربية الفصيحة مثل تلك التي تتناف في التقائها الصوتي وقد فرق ليس فقط بين المستعمل والمهمل من اللغة بل أيضا من الكلمات المنقرضة وحلت محلها كلمات أخرى.

إن الخليل راعى مستويات من خلالها ينظر إلى الكلمة من حيث كونها قديمة وحديثة، هجرت أم لا، لغة أم لهجة، خاصة بقبيلة معينة أو دخيلة أو أدخلت عليها بعض الفونيمات ، وذلك بطريق ميزات ومستويات صوتية (المواءمة) والصرفية (الكم) ومعجمية (دلالة)،إضافة إلى كونها صنف نحوي (اسم، فعل، صفة، ظرف، أداة) .

فالخليل تجاوز بعمله هذا مجرد الكشف عن مجموع مفردات اللغة، أو سجلها المشتمل على المفردات التي تستعملها جماعة لغوية ما، وذلك بطرحه لكثير من قضايا اللغة سوى في المنهج أو المادة التي ما يزال أصحاب اللسانيات يطرحونها [3]

وقبل أن نتطرق إلى الموضوع وجب أن نذكر بمنهج الخليل في تأليف العين.

أولا: منهج الخليل في تأليف العين:

1- ترتيب المفردات على أساس صوتي وهو نظام لم يسبق إليه، فقد ألف الناس ترتيبا على أساس تشابه المجموعات (ب،ت،ث) ، ولكنه وه_و ذو العقل الرياضي لم يلجأ لهذا الترتيب التقليدي بل رتب الحروف الساكنة بحسب مخارجها، بادئا بالحروف الحلقية ثم اللسانية ثم الشفوية ثم الهوائية، وجعل لكل حرف كتابا،

[2] ألف تشومسكي مصنفه "اللسانيات الديكارتية" على أساس رياضي وهو طرح من مثل ما ألفه ونظر إليه الخليل في دراسته للغة

[3] نفسه 141/1 .

وكان ترتيبه للأصوات على الصورة المخرجية لها وسمى كل حرف كتابا،وافتتح معجمه بحرف العين وسماه كتاب العين، فكتاب الحاء، فكتاب الهاء... وغيرها، وأطلق اسم كتابه الأول، وهو كتاب العين على المعجم كله لأنه ابتدأ به.

2- خضع تبويب الكلمات لنظام الكمية ، وسجل الكلمات حسب التقسيم الأتي:

أ- **الثنائي** : (وقصد به الخليل ما اجتمع فيه حرفان من الحروف الصحيحة ولو مع تكرار أحدهما في أي موضع، فالكلمات : قَدْ، قدّ، قدْقد، كلها تعالج في موضع واحد، علما بأن الأولى ثنائية، وقد الثانية مضعف ثلاثي، وقدقد مضعف رباعي كما هو مشاهد).

ب- ب1- الثلاثي الصحيح (وأراد بالثلاثي الصحيح ما اجتمع فيه ثلاثة أحرف صحيحة على أن تكون من أصول الكلمة مثل ضرب) .

ب2 – الثلاثي المعتل (ويعني بالثلاثي المعتل ما اجتمع فيه حرفان صحيحان وحرف علة واحد،سواء كان هذا الحرف في موقع الفاء أو العين أو اللام يعني مثالا أو أجوفا أو ناقصا).

ب3- اللفيف: (ويعني باللفيف ما كان به حرف علة سواء كان مقرونا أو مفروقا)

ج- الرباعي

د- الخماسي: وجعل هذه الأبنية الأربعة وهي الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي أساس تقسيم الكتب إلى أبواب.

3- عالج الكلمة بتقلباتها في موضع واحد، فمثلا ضرب وتقلباتها: ضبر، رضب، بضر، برض،تعالج في مكان واحد تحت أبعد الحروف مخرجا، وهو هنا صوت الضاد، ولا يكرر هذه الكلمات عند الكلام على الراء أو الباء، بل يكتفي بذكرها عند الكلام على الضاد.

ومن ما يجدر الإشارة إليه أن الثنائي له صورتان والثلاثي له ستة صور والرباعي له أربعة وعشرون والخماسي مئة وعشرون، من طريق التوافيق والتباديل الرياضيين، وهذه التقليبات تشتمل على كلمات وصور غير مستعملة، مما جعل الخليل غير بعضها من بعض بقوله: مستعمل أو مهمل في الأبنية الثنائية والثلاثية. أما فيما عدى ذلك فيكتفي بإيراد المستعمل فقط، ولا ينص على المهمل لأنه كثير جدا.

ولمنهج الخليل هذا أهمية بالغة عند من يرى أن الكلمات المشتركة في الحروف وإن اختلفت في الترتيب تشترك في المعنى أو المصدر الذي تتفرع منه، وهذا أعظم دليل على أن الخليل اهتم بالتفسير الاشتقاقي للمواد التي يتناولها، ولم يقف عند شرح المادة وتقاليبها وفروعها من طريق الاشتقاق العام،بل كان يذكر في كل أصل ما تفرع عنه من طريق الاشتقاق الكبير.

والخليل بهذا أسبق من ابن فارس وابن جني إلى فهم الاشتقاق الكبير، وهو دلالة الحروف في كلمة من الكلمات على اختلاف ترتيب هذه الحروف على أصل معنوى واحد.

4- ألزم الخليل نفسه في منهجه بالترتيب الدقيق، ويمثل هذا أنه إذا كان بصدد الأفعال ذكر الماضي فالمضارع، فالمصدر، كأن يقول: " جدعته أجدعه جدعا " ، وإذا كانت المصادر تختلف معانيها باختلاف صيغها فإن هناك فرق بينها.

5- أقام الخليل شرح المواد اللغوية على دعائم قوية من الشواهد القرآنية والحديث النبوي الشريف والشعر والأمثال .

هذا باختصار جدا منهجه في تأليف العين.

ثانيا: الخليل ومشكلة الإفصاحية:

لقد كان لدخول غير العرب الحضارة العربية الإسلامية أن كان لنتيجة معايشتهم لعامة الشعب أن ظهرت لغة العوام وهي ما يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين، وقد أخذت هذه اللغة تؤكد وجودها يوما بعد يوم، بعد أن انفصلت عن الفصحى، إلى أن أقر بعض العلماء بأن التعبير الأدبي في لغة العوام له سماته التي لا ينبغي للفصحى أن تغيره[4].

ولم يقتصر الأمر على ظهور لغة العوام جنبا إلى جنب مع اللغة الفصحى بل إن اللغة الفصحى لم تسلم من تأثير العامية فيها سواء في الإعراب أو الألفاظ أو التراكيب[5].

ولم يعتمد الخليل على رواية اللغة وإنما كما ألمحنا سابقا، فطن إلى ذلك صوتيا نتيجة مخالطة الأعراب الفصحى،(سأل الكسائي الخليل بن أحمد: من أين علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قنينة من الحبر في الكتابة على العرب سوى ما حفظه) [6].

هذه العشرة إذا هي التي جعلته يميز بين أصناف الكلم العربي من حيث مستوياته الفصاحية،دون أن يعتمد على رواية اللغة ، والأخذ عن أعراب فصحاء، ضف إلى ذلك أنه لم يكن بمعزل في نشاطه الأدبي واللغوي عن الحياة العامة، بل إن بيئته الثقافية العامة كانت من النشاط مثل مجالس الغناء والطرب الذي يشترط فيه أن يكون المغني أو المغنية على قدر واف من الثقافة العربية،ومثل مجالس الخلفاء التي كانت تجمع المتخصصين في فروع العلم والمعرفة .

- وقد كانت نتيجة هذا النشاط الهائل في الجمع والدراسة والتحصيل أن برزت المشكلات اللغوية مثل مشكلة الفصاحة، إذ بعد أن استقصى الخليل جمع اللغة، وجد أن بعض القبائل قد تشذ في استخدام ألفاظ في غرض معين لا تستخدمها القبائل الأخرى في الغرض نفسه ومن ثم تساءل أي الألفاظ أصلح في التعبير عن هذا الغرض؟ ومن ثم حرر لذلك ضابطا يعرف به ما اكترث العرب من غيره على غرار ما قال به العلماء (فقالوا : الفصاحة في المفرد، خلوصة من تنافر الحروف، ومن الغرابة ومن مخالفة القياس

---

[4] ينظر مثلا في هذه القضية: الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الأندلس ببغداد، تحقيق إبراهيم السمرائي، ط2 / 1970، 146/1 .

[5] نفسه 141/1 .

[6] أبو البركات ابن الأنباري: نزهة الألباب في طبقات الأدباء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 ،1968، ص50.

اللغوي)[7] ، وزاد بعضهم في شروط الفصاحة خلوصة من الكراهة في السمع بأن يمج الكلمة وينبو عن سماعها ... [8].

- ولقد ميز بين ما هو من كلام العرب من ناحية، وما روي عنهم وليس من كلامهم من ناحية أخرى، فقد كان نتيجة تقادم العهد بالعرب، واختلاف بعض الآراء الذين أخذت عنهم الأخبار ثم نتيجة المنافسة الشديدة بين علماء اللغة وبخاصة إذا احتكم إليهم في مجالس الخلفاء في موضوع ما ، ثم نتيجة الصراع الشديد بين البصريين والكوفيين أن ظهرت في اللغة ألفاظ غريبة لم يعرف لها مصدر، ومن ثم فقد عكف الخليل على تخليص اللغة من هذه الألفاظ إذ نقل السيوطي عنه في المزهر باب تحت عنوان " ما روي من اللغة ولم يصح ولم يثبت" ، وما كتبه المبرد في كتابه "الكامل" تحت عنوان "أكاذيب العرب "
- أشار الخليل في كتابه العين إلى الألفاظ العربية القديمة والإسلامية والمولدة التي أتت نتيجة توسع الدولة الإسلامية وبذلك ازدادت ثروة اللغة العربية.

ثالثا: المعرب والدخيل في معجم العين:

لما انتهى زمن البحث الميداني وغلب على العلماء النزعة إلى التصنيف والتنظيم، أخذ كل عالم يجمع مادته في الموضوع الذي يود التصنيف فيه، كأن يكون موضوع الأنواء أو الخيل أو النوادر إلى غير ذلك ، هذه المادة الهائلة التي يجمعها علماء اللغة في كتبهم،صبت فيما بعد في التأليف المعجمي حقا إن الخليل ابن أحمد كان قد ألف كتابه العين في زمن مبكر قبل أن يظهر معظم هذه الأعمال اللغوية لكن تأليف الخليل بن أحمد لكتابه يعد طفرة سابقة لأوانها، ولم يأخذ المعجم في الحقيقة شكلا مكتملا إلا بعد أن تمت تلك المحاولات المفردة لاستقصاء المفردات اللغوية ومعانيها في كثير من الموضوعات، ونحاول الآن أن نتحدث عن موضوع المعرب والدخيل في معجم العين.

لقد أقر علماء اللغة لبعض القبائل بالفصاحة وأنكروها على بعضها الآخر ومن ثم فقد كانوا إذا سئلوا عن شيء من كلام هذه القبائل الأخيرة قالوا هذه لغة، أو هذه لهجة. أما الألفاظ الدخيلة التي دخلت في اللغة العربية فقد سموها المعرب والدخيل، ولهذا يشير نص ابن حيان في الارتشاف بقوله: " الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام، قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها، فحكم أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن حكم أبنية غيره. وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الأول الذي قبله نحو آجر ، وسفسير ، وقسم تركوه غير مغير، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يعد منها ، وما ألحقوه بها عد منها، مثال الأول: خراسان ، ما يثبت به فعالان ، ومثال الثاني خرّامي ، الحق يسلّم، وكركم الحق بقمقم " [9].

---

[7] المزهر، السيوطي، دار الضبي ، القاهرة، 182/1.

[8] نفسه، 186/1 -187

[9] المزهر 1 /269 .

حتى إذا كان القرن السادس الهجري ألف الجواليقي في هذا الموضوع كتابا كاملا هو كتاب "المعرب من الكلام الأعجمي" ، وقد تأثر الجواليقي في كتابه هذا بفكرة الخليل بن أحمد في التمييز بين الألفاظ الفصيحة والألفاظ الدخيلة على أساس جرس الألفاظ، أو المواءمة الصوتية للمفردة المعجمية فالألفاظ التي تجتمع فيها الجيم والقاف أو الصاد والجيم، أو النون والراء تالية لها، أو الدال والراء تالية لها، أو الباء والسين والتاء، والألفاظ الرباعية والخماسية الخالية من حروف الذلاقة تكون من الألفاظ الدخيلة [10] .

ومن هنا يتبين لنا كيف مضى الخليل من طريق المواءمة الصوتية أن يفرق بين الفصيح ومستوياته في اللغة العربية، وسنبين كيف أن التأليف الصوتي اتخذ منه الخليل قاعدة لسانية للتطبيق على كافة اللغة للتمييز بين أصناف المنطوق اللساني:

رابعا: الشكل الفونولوجي والمواءمة الصوتية والانتقاء القياسي للغة:

قد حدد الخليل من طريق الشكل الفونولوجي نمطية التأليف الصوتي في الوحدة المعجمية العربية، رغبة منه في التمييز بين ما هو عربي خالص من كلام العرب وما هو محدث مبتدع فيه. وقد أعطى أصواتا بعينها قيمة تمييزية ورأى أنها من خصائص التأليف الصوتي في العربية، وهي "حروف الذلاقة" وعددها ثلاثة وهي: الراء والام والنون ، "والحروف الشفوية"وهي ثلاثة أيضا وهي الفاء والباء والميم، فإن هذه الحروف الستة (لما ذلقت ومذل بها اللسان وسهلت عليه في المنطق كثرت في أبنية الكلام)[11].

على أن الخليل قد خص بالنظر من أصناف الأبنية صنفين هما الرباعي والخماسي لأن هذين البنائين فيما يبدو أكثر عرضة للوضع والاختلاف لأنهما أقل جريانا على الألسنة وأقل ورودا في الشواهد اللغوية من الثنائي- ويشتمل عنده على الثلاثي المضاعف والثلاثي. فليس في كلام العرب إذا حسب النظرية الخليلية رباعي أو خماسي إلا وفيه من الحروف الستة التي ذكر فيها حرفا واحدا أو أكثر: " فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة صوتما محدثا مبتدعا ليس من كلام العرب، لأنك لست واحدا من يسمع من كلام العربي كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية حرف واحد أو اثنان أو أكثر "[12].

على أن من الصيغ الرباعية – ولم يذكر الخماسية- ما قد يرد معرى من حروف الذلاقة والحروف الشفوية ومن أمثلتها (العسجد و القداحس و الدعشوقة) [13] ، وقد وجد الخليل في هذه الصيغ حروفا أخرى ذات قيمة صوتية تمييزية هي العين والقاف، وقد سماها "حرفي طلاقة"، والسين والدال فإن:" العين والقاف لا تدخلان في بناء الإ حسنتاه لأنها أطلق الحرف و أضخمها جرسا [14]، والسين والدال تردان بعدهما في الاستحسان للينهما

---

[10] حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره، دار مصر للطباعة، 71/1 .

[11] الخليل ، العين: تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السمرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،1988، 52/1.

[12] السابق: 52/1 .

[13] نفسه 53/1 .

[14] نفسه 53/1 .

وخفتهما ، وقد استخلص من ذلك أنه " مهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من الحروف الذلق والشفوية، فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كلاهما ومن السين والدال أو أحدهما [15].

إلا أن قلة المفردات التي تكون للعين والقاف والسين والدال فيها قيمة تمييزية– فقد قال غنها " عشر كن شواذ[16]– تجعل منها من حيث التواتر أقل أهمية من الحروف الذلق و الشفوية، فإن هذه الحروف الستة هي الميزة الأساسية لأبنية العربية والخماسية من غير العربية فإنها ممثلة لسيمات مميزة في الأبنية العربية الصرف الرباعية والخماسية خاصة، ويستخلص من هذه الميزة بالقاعدة التالية:" لا تخلو مفردة عربية صرف رباعية أو خماسية من حرف واحد أو أكثر من الحروف الذلق أم الشفوية" .

زيادة على ما ورد في المواءمة الصوتية للتأليف الصوتي للوحدة المعجمية، وطريقة انتقاء الخليل للفصيح، فإنه قد عنى عناية بالغة بلغات العرب، وقد سمى منها ثلاث لغات هي: عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وقطعة طي، كما أشار إلى لغت هذيل وتميم واليمن، بل أورد كثيرا من لغات المعاصرين له في العراق.[17]

الخاتـمـة :

لقد حاولنا في الفتات السابقة إلقاء النظر على تلك النظرة البارعة لكيفية التأليف الصوتي للمفردة العربية وكيفية موائمة صواتمها لبعضها البعض والتي ألفت إليها الخليل في معجمه العين بحيث عرف أن للمفردة العربية الفصيحة شكل صوتيمات فيه من السماة ما يجعل المفردة تختلف عن غيرها من المفردات صوتيا .

وقد رأينا تفطن الخليل إلى أهمية التأليف الصوتي في المفردة اللغوية لكنه لم يهتم بهذه الميزة باعتبارها خصائص تمييزية للمفردات داخل النظام اللغوي العربي، بقدر ما اهتم بها باعتبارها خصائص تميز بين ما هو من كلام العرب وما هو مبتدع مختلف فيه، ليس من كلامهم، ومن ثم تفطن إلى صلة الأصوات بالمعجم من خلال المكونات الأساسية للمفردات، ومنه تستمد خصائصها الذاتية.

---

[15] نفيه 54/1.

[16] نفسه 53/1 .

[17] حسين نصار: المعجم العربي، 256/1.